نقد تاريخ التمدن الاسلامي

﴿ بقلم الشيخ شبلي النعماني ﴾

٤

أما المصانع - فان هشاما حصن المثقب على يد حسان بن ماهون الانطاكي وحفر له خندقا وبنى حصن قطر غاش ، وحصن مورة ، وحصن بوقا من عمل انطاكية . وبنى سعيد بن عبد الملك سور الموصل وهو الذي هدمه الرشيد . وفرش الموصل بالحجارة ابن تليد صاحب شرطة المروانيين . وسار العباس بن الوليد الى مرعش فعمرها وحصنها ونقل الناس اليها وبنى لها مسجدا جامعا ، واسكن مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب اربعة وعشرين الفاً من اهل الشام على العطاء وبنى هريا (مخزنا) للطعام وهريا للشعير وخزانة للسلاح وأمر بكبس الصهريج ورمم المدينة وشرفها . واحدث الحجاج احد امرائهم في سنة ٨٣ مدينة واسط بين الكوفة والبصرة وبنى مسجدها وقصرها والقبة الخضراء بها ، واحدث سليمان بن عبد الملك في ولايته مدينة الرملة ومصرها وبنى فيها القصور ومسجدا وحفر الآبار والقنى والصهاريج . وبنى احد قوادهم عقبة ابن نافع الفهري بافريقية قيروانها واحدثوا غيرها من المدن والحصون والارباض في الاندلس وحدود بلاد الروم والسند

ثم امنوا الطرق وعمروا السبل فكان موضع قيروان غيضة ذات طرفاء وشجر لا يرام من السباع والحيات والعقارب القتالة فاحدثوا فيه تلك المدينة الزهراء فأصبحت طرق افريقية آمنة مستأنسة بعدما كانت مستوحشة ذات مخاوف ومهالك . وكانت الطريق فيما بين انطاكية والمصيصة مسبعة يعترض للناس فيها الاسد فوجه الوليد اليها اربعة آلاف من الجاموس ففع الله بها . واذكر ما كتب ابن الاثير في حوادث سنة ٨٨ « ان الوليد كتب الى البلدان جميعها باصلاح الطرق وعمل الآبار » وكان الموضع الذي فيه نهر سعيد بن عبد الملك غيضة ذات سباع فاقطعه اياها الوليد فحفر وعمر ماهنالك . ولما بنى سبيل الطراف بمكة في سنة ٨٠ في زمن عبد الملك أمر عامله بعمل صفائح الدور الشارعة

على الوادي وضفائر المسجد وعمل الردم على افواه السكك . وحفر عدي عامل البصرة من قبل عمر بن عبد العزيز باسره نهر عدي .

ومن الاخبار التي تدل على شدة حبهم للرعية وكثرة بذلهم في ازاحة خللها وامائلة أذاها ـ انه شكا أهل البصرة الى عامل يزيد على العراق ملوحة مائهم فكتب بذلك الى يزيد فكتب اليه : إن بلغت نفقة هذا النهر خراج العراق فأنفقه عليه ، فحفر لهم النهر الذي يعرف بنهر ابن عمر وحفر عمالهم الجائرون الغاشمون (كما يقول جرجي افندي زيدان) والمنتسبون اليهم كثيرا من الانهار غير ما ذكر كنهر معقل ، ونهر دبيس ، ونهر الاساورة ، ونهر عمرو ، ونهر أم حبيب ، ونهر حرب ، ونهر يزيدان ، ونهر سلم ، ونهر ناقد ، ونهر خيرتان ، ونهر صرة ، ونهر بشار ، ونهر بزور ، ونهر حبيب ، ونهر ذراع ، ونهر ابي بكرة ، وغيرها من الانهار وهذه الانهار كلها حفروها (١) بالبصرة فما بال غيرها من البلاد ؟

أما ما بذلوا من الاموال وافرغوا من الجهد في بناء المسجد النبوي وتذهيب البيت والمسجد الاموي الذي هو معدود من إحدى العجائب في كثرة نفقاته وعظمة بنائه ودقة صنعه وبهجة منظره وحسن نظامه فهو أشهر من نار على علم

وبنو أمية هم أول من اتخذ دار الضرب في الاسلام فسكوا به الاسلام رفعة وأغنوه عن نقود الروم والفرس ونجوه مما أوعده الروم بنقش شتم النبي صلى الله عليه وسلم عليها ، وهم الذين نقلوا الدفاتر والدواوين من الفارسية والرومية والقبطية الى العربية (٢) فزادت العربية انتشاراً ونفوذا ولم يمض برهة من الدهر حتى أصبحت هذه البلاد عربية النزعة واللسان ، وهم أول من بنى مستشفى في الاسلام ـ بنوه بدمشق سنة ثمان وثمانين ، جعلوا فيه الاطباء وأمروا بحبس المجذومين وأجروا لهم الارزاق ، وهم أول من أنشأ داراً للعميان ، وهم أول من عمل دار الضيافة (٣) بعد عمر بن الخطاب ، وهم أول من رثى للايتام وتحنن عليهم ورتب لهم المؤدبين ليعلموهم (٤)

﴿ نشر المعارف والعلم ﴾

أما العلم ـ فقد زخر بهم بحره ، وأزهر بدره ، فالقرآن الذي هو عمود الاسلام ، ورأس العلوم ، وينبوع المعارف ، أدرك الامة قبل اختلافها فيه عثمان بن عفان وهو

(١) راجع لكل ذلك البلاذري (٢) راجع لكل ذلك فتوح البلدان للبلاذري
(٣) اليعقوبي ذكر الوليد (٤) السيوطي ذكر الوليد

أموي . ثم بعد ذلك اختلطت العرب بالعجم واحتكت بهم فسدت لغتها وأسلمت العجم فلم تستطع الملامسة من اللحن فكثر التصحيف في القرآن وانتشر بالعراق ففزع الحجاج وهو أحد أمراء بني أمية الى كتابه فوضعوا النقط والاعجام (١) فعصموا به كتاب الله أن يتطرق اليه التصحيف والتحريف تطرقهما الى التوراة والانجيل ، ووالله هذا أعظم مبرة برّ بها الاسلام لا تساويها مبرة وأعظم منة منّ بها على الدين لاتوازيها منة . ثم كتب الحجاج المصاحف وفرقها في الامصار وكان الوليد - الذي رماه صاحبنا بالاستهانة بالقرآن - يحث الناس على حفظ القرآن وكان يجزل الصلات لحفظته ويضرب الذين لم يحفظوه (٢) فكثر حفظته وعظم قدرهم وجلت رتبتهم

أما التفسير - ففي أيامهم نبغت أجلة المفسرين من التابعين ، وفي أيامهم دون التفسير في الصحف فأول من وضع في التفسير ابن جبير بأمر عبد الملك (٣) ثم مجاهد

أما الحديث - فكانوا يدرون على أهله الصلات ويمنون اليهم بالهدايا ويجرون لهم الارزاق لينقطعوا الى حفظ الحديث وروايته ونقله وكانوا يكرمون الفقهاء ويجلون مقامهم ويراعون جانبهم ، فقد كان يصيح صائح من بني مروان في موسم الحج : ألا لا يفتي الناس الا عطاء بن أبي رباح اجلالا لشأنه ولكثرة علمه بالمناسك (٤) وكان عبد الملك أمر الحجاج وهو أميره على الموسم أن يقدم ابن عمر في الحج ويقتص أثره في المناسك ، وكان سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد والشعبي وميمون بن مهران والزهري وأيوب ابن أبي تميمة وقبيصة بن ذؤيب ورجاء بن الحياة أعزة عند بني أمية وكان أكثرهم عمالا لهم وهم أساطين الحديث وائمة الرواية وأعلام النقل . وأنت تعلم ان أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لولا أنها استودعت بطون الصحف لضاعت بهلاك العلماء واسراع الموت فيهم ، فاسأله بحرمة التاريخ من أمر أهل هذا الشأن بتدوينها في الكتب - أليس هو عمر بن عبد العزيز الاموي ؟ فجاء في الآثار ان عمر بن عبد العزيز كتب الى الآفاق « انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه » وكتب الى أبي بكر بن حزم رأس المحدثين « أن انظر ما كان من سنة أو حديث فاكتبه لي فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء » وقد كتب ابن حزم كتبا في الحديث فتوفي

---

(١) ابن خلكان ذكر الحجاج (٢) العقد أخبار الوليد ص ٢٣٩ وابن الاثير سنة ٨٨
(٣) ميزان الاعتدال للذهبي . ذكر عطاء بن دينار (٤) ابن خلكان . ذكر عطاء

عمر ثم وضع الكتب فيه وبعث بن صبيح وكان عمر بن عبد العزيز يكتب الى الامصار يعلمهم السنن والفقه (١)

أما أصول اللغة ونحوها - فقد كان تدوينها بأمر أمراء بني أمية، ذكر ابن خلكان (المجلد الاول صفحة ٢٤٠) ان أبا الاسود الدؤلي استأذن زياداً بن ابيه - وهو والي العراقين يومئذ - ان يضع للعرب ما يقيمون به لسانهم فأبى ثم بدا له صواب رأيه فدعا الدؤلي وقال له ضع للناس الذي نهيتك ان تضع لهم فوضعه وأخذ عنه ما وضعه عنبة بن مهران المهري وعنه ميمون وعنه عبد الله الحضرمي وعنه عيسى بن عمر وعنه الخليل (٢) وهؤلاء كلهم كانوا في عصر بني أمية وهم واضعو النحو ومدونو أصوله

أما الشعر - ففي عصرهم فتقت ألسنة الشعراء وارتفع قدرهم وانتشر ذكرهم فحول الشعر وأمراء القول وفرسان القريض هم الفرزدق الدارمي وجرير الخطفي والاخطل التغلبي وعمر بن ابي ربيعة القرشي وكثير عزة وجميل بثينة ومجنون ليلى وذو الرمة غيلان ونصيب وهؤلاء كلهم كانوا يقصدونهم بجياد قصائدهم فكانوا يغمرونهم بالجوائز فطفقت ألسنتهم بما اصبح زهرة للأدب وزينة للغة

وكانوا يحثون الناس على اقتناء الادب وتناشد الشعر وتدارس أخبار الشعراء، وكانوا يستوفدون الشعراء ويستزيدونهم ويجزونهم بالاموال الجزيلة وكانوا يرسلون أبناءهم الى البادية ليتلقوا الادب ويتلقفوا اللغة من أفواه الاعراب وأهل البادية، وقد جمع الوليد بن يزيد بن عبد الملك ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وانسابها ولغاتها (٣)

أما علم التاريخ والسير والمغازي - فبعصرهم افتتح عصره، وبأمرهم ارتفع أمره، فحول أصحاب السير والمغازي هم وهب بن منبه عالم اليمن المتوفى سنة ١١٤ ومحمد بن مسلم الزهري صاحب عبد الملك المتوفى سنة ١٢٤ وموسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ وهؤلاء كلهم كتب في التاريخ والسير والمغازي (٤) ووضع في أيامهم عوانة المتوفى سنة ١٤٧ كتاب التاريخ، وكتاب سيرة معاوية وبني أمية، وكان لملوك بني أمية رغبة شديدة في استطلاع الاخبار الماضية وحوادث الامم الخالية. قال المسعودي: انه كان معاوية مجلس لاصحاب الاخبار في كل ليلة بعد العشاء الى ثلث الليل ثم ينام ثلث الليل ويقوم

(١) مقدمة الزرقاني على الموطأ (٢) ابن خلكان مجلد ٢ ص ٣٨٠ (٣) الفهرست صفحة ٩١
(٤) راجع كشف الظنون وتذكرة الحفاظ

فيأتيه غلمان وعندهم كتب فيقرأون عليه مافي الكتب من اخبار الامم وسير الملوك وسياسات الدول ، ولم يصبر على ذلك حتى استحضر عالم عصره عبيد بن شريه من صنعاء اليمن وسأله عن الاخبار المتقدمة وملوك العجم وسبب تبلبل الالسنة وأمر افتراق الناس في البلاد ، وأمره أن يدوّن ماعلمه، وعاش عبيد الى أيام عبد الملك وتوفي وله من الكتب كتاب الامثال وكتاب أخبار الماضين (١) وأخذ عنه اناس سماهم ابن النديم وكان من رواته زيد الكلابي في أيام يزيد بن معاوية عارف بأيام العرب وأحاديثها (الفهرست صفحة ٩٠) وقد كان هشام مشغوفا بالسير والاخبار فنقل له جبلة بعض كتب سير الفرس من الفارسية الى العربية (٢) وأمر هشام النقلة فنقلوا له كتاب تاريخ ملوك الفرس وقوانين دولتهم وتراجم رجالهم وكان هذا الكتاب مصوراً ، ثم نقله سنة ١١٣ وآه المسعودي سنة ٣٠٣ في مدينة اصطخر كما ذكر في التنبيه صفحة (صفحة ١٠٩)

أما علوم الفلسفة ومنها الطب والكيمياء ـ فكان لهم في نقلها الى العربية آثار صالحة فنقل ابن اثال لمعاوية كتب الطب من اليونانية وهذا أول نقل في الاسلام ، وكان في البصرة في ايام مروان بن الحكم طبيب ماهر يهودي النحلة عارف بالعربية اسمه ماسرجويه فنقل ماسرجويه هذا كناش القس اهرون بن اعين من السريانية الى العربية فلما تولى عمر بن عبد العزيز وجد هذا الكتاب في خزائن الكتب في الشام فأخرجه للناس وبثه في أيديهم (٣) وخالد بن يزيد بن معاوية حكيم آل أمية أول من طلب علوم الفلسفة في الاسلام، وخبره انه كان يطمح في الخلافة فلما وثب مروان عليها رغب خالد عنها الى طلب العلم فاستقدم جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر ومنهم مريانوس الرومي الذي اخذ عنه صنعة الكيمياء والطب وأمرهم بنقل الكتب من اليونانية والقبطية الى العربية فنقلوها له ولخالد كلام في الكيمياء والطب ـ وكان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما ـ وله رسائل دالة على معرفته وبراعته كما اخبر به ابن خلكان ، وقد ذكر له ترجمة صالحة ابن النديم في فهرسته ونقل سالم كاتب هشام ـ وهو ابو جبلة المار ذكره ـ رسائل ارسطاطاليس الى الاسكندر . فبناء على ماقدمنا من القول بنو أمية هم أول من استقدم الفلاسفة واستدناهم في الاسلام ، هم أول من أمر بنقل العلوم الى العربية في الاسلام ، هم أول من انشأ خزائن للكتب

(١) كتاب الفهرست صفحة ٢٤٤ (٢) راجع الفهرست ايضا (٣) أخبار الحكماء وعيون الانباء

في الاسلام ، وقد ضربنا صفحا عما كان لآل أمية بالاندلس في السياسة والعلم من المآثر الحسنة والاعمال الجليلة والسير العادلة . فهل لك أيها الفاضل المؤلف الى الاذعان للحق من سبيل ، والى الرجوع عن ضلال الرأي من طريق ؟

﴿ صنيع المؤلف بالعباسية ﴾

عهدنا الوحوش الضارية مع جفاء طبعها وقسوة قلبها وكونها مطبوعة على الافتراس والفتك والارتواء بالدم واذا دخلت غابتها وأحاطت بها عائلتها تبدل القسوة بالرحمة والغلظة باللطف والغضب بالحنان ، فبينما أحدها عبوس كاشر عن الانياب كالح الوجه مستبشع المنظر كريه الهيئة اذ هو هش بش حنون عطوف يذوب لطفا ورقة ، وكذلك شأن قواد الجند وابطال الحرب فانك ترى أحدهم اذا قاتل الاكفاء وناطح الاقران فهو شهاب ينقض ، ونار تلتهب ، وسعير تفور ، واذا عاشر الاصحاب فهو ألينهم جانبا ، واحلاهم خلقا ، وأوسعهم حلما ، وأرقهم طبعا ، وقد جربنا المؤلف وعجمنا عوده في معاملته مع اعدائه (بني أمية) فلننظر كيف حاله في معاشرته مع اصدقائه (العباسية)

قال المؤلف

« خطب بعضهم الى المنصور أن يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها (١) في العراق وتكون حجا للناس فبنى بناء سماه القبة الخضراء تصغيراً للكعبة وقطع الميرة في البحر عن المدينة » (الجزء الثاني صفحة ٣٠)

وقال « وأراد المعتصم أن يستغني عن بلاد العرب جميعا وكان قد بنى سامرا بقرب بغداد وأقام فيها جنده فأنشأ فيها كعبة وجعل حولها طوافا واتخذ منى وعرفات الخ » (الجزء الثاني صفحة ٣٢)

وقال « فلما أفضت الخلافة الى المأمون الخ ـ ثم قال ـ فأخذ يناظر أشياعه ومصرح بأقوال لم يكونوا يستطيعون التصريح بها خوفا من غضب الفقهاء وفي جملتها القول بخلق القرآن أي انه غير منزل » (الجزء الثالث صفحة ١٤٩)

غير خاف على أحد ان العباسية ان افتخروا وتطاولوا على منازعيهم في الرئاسة فعظم فخرهم وأبين حججهم انهم بنو عم النبي وسدنة البيت وخدمة الحرم ودعاة الاسلام وقراء القرآن (وصاحبنا يقول) ان المنصور وهو مؤسس دولتهم وفاتحة خلفائهم بنى القبة الخضراء إرغاماً للكعبة وقطع الميرة عن المدينة تضييقاً على أهلها

(١) كانت صحة العبارة ان يقول : ان يستبدل بالكعبة الخ اه مصححه

وان المأمون ـ وهو أفضل خلفائهم ديناً وورعاً ـ كان ينكر نزول القرآن . وان المعتصم ـ وهو فخرهم وواسطة عقدهم ـ بنى كعبة في سامرا وجعل لها طوافاً . ولعلك تقول : ان الحاكم بالعدل والقائم بالقسط ليس له حميم ولا عدو فهو يتحرى الصدق ويدور مع الحق كيفما دار . فالمؤلف اذا أتته سيئة من بني العباس قضى عليهم من غير محاباة لهم ولا ميل اليهم ، وكذلك اذا عرضت له حسنة من بني أمية فهو يوفيهم حقهم من الاستحسان وحسن القول وتنويه الذكر ـ هيهات هذا كان رجاؤنا فخاب الظن وكذب الامل وذهبت الثقة فان المؤلف لما ذكر بني أمية عقد لمثالبهم أبواباً منها : استخفافهم بالدين وذكر فيه قتال عبد الملك مع ابن الزبير فقلب الرواية كما سبق ذكره ، فلو كان مغزى المؤلف الصدق وبيان الحقيقة لكان يعقد بابا للعباسية أيضا يذكر فيه استخفافهم بالكعبة وانكارهم لنزول القرآن ، وهنا موضع نظر الى دقة مكيدة المؤلف وحسن احتياله فانه يريد من طرف النقض من الكعبة والحط من القرآن ومن طرف الانتصار للعباسية والذب عنهم لاجل انهم كسروا شوكة العرب واتخذوا العجم بطانتهم وعمود دولتهم فذكر استخفافهم بالكعبة ولكن مغموساً مبدداً تحت عنوان ثروة الدولة الاسلامية ليأخذ بطرفي المطلوب ويفوز بغيتيه معاً

أما كشف الجلية عن أصل الحال فالامر ان من يدعي الخلافة (وهي منصب ديني) ويرشح لها نفسه لا يجد الى ذلك سبيلا الا بالتظاهر بالدين والتصبغ به ونصب نفسه لاعلاء كلمته ورفع مناره وحمل الناس على تعظيم شعائره والتدلي الى خاصة القائم به ليجلب عطف القلوب وجذب الاميال ورضاء العامة والتحبب الى الناس ولذلك كان الخلفاء (بنو أمية والعباسية كلاهما) يصلون بالناس ويؤمونهم ويحضرون الموسم ويحجون بهم أو يرسلون من خاصتهم من ينوب منابهم ويخطبون على المنابر ولذلك لما أراد أهل الشام المكيدة بعلي رضي الله عنه ورفعوا المصاحف كف أصحاب علي عن القتال ولما قال علي هذه خديعة منهم قالوا : اذا لم تذعن لهذا خلعناك ، فلم يقدر على خلافهم ورضي بما لم يكن ونقض رضاه ، ولما فعل يزيد ما فعل ضج الناس وكادوا يسطون عليه لولا أنه مات عاجلا ولما أراد الحجاج قتال ابن الزبير أغراهم بأن ابن الزبير ألحد في الدين وزاد على الكعبة ولذلك نصب المناجيق تلقاء الزيادة التي كان زادها ابن الزبير (رض) ولما جاهر الوليد بن يزيد بالفسق قاموا عليه وقتلوه ولما قال أبو نواس يمدح الامين وصدر القصيدة بهذا البيت

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرًّا فقد أمكن الجهر

اتخذ المأمون هذا وسيلة لاغراء الناس على مخالفة الامين . فهل تصدق بعد كل ذلك بأن المنصور أو المعتصم كان يقدر أو يسوغ له أن يصغر شأن الكعبة ويمس من شرفها؟ وهل كان يقدر المأمون أن يحمل الناس على انكار القرآن والعياذ بالله؟ فأما استشهاد المؤلف في هذه الواقعة بابن الاثير وغيره فكله تحريف وتدليس وسوء تأول ولولا أني شئت من كشف دسائسه مرة بعد أخرى لاوضحت الامر وبينت حقيقة الحال

قال المؤلف ولما تولى المعتصم سنة ٢١٨ هـ واصطنع الاتراك والفراغنة ازداد العرب احتقاراً في عيون أهل الدولة وتقاصرت أيديهم عن أعمالها حتى في مصر .... — الى ان قال — فأصبح لفظ عربي مرادفا لاحقر الاوصاف عندهم ومن أقوالهم : العربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة واضرب رأسه وقولهم : لا يفلح أحد من العرب الا أن يكون معه نبي ينصره الله به (الجزء الثاني صفحة ٣١ و٣٢)

من احسن أعمال آل عباس عند المؤلف انهم صغروا شأن العرب وساموهم الخسف وسلطوا عليهم الاعاجم والاتراك وجعلوا هؤلاء ولاة البلاد بيدهم الامر والنهي والرفع والخفض والعقد والحل والنقض والابرام . ذكر ذلك في غير موضع وكلما ذكره وجد من نفسه اوتياحاً اليه وشفاه لمزاولته وهزة لعطفه وميلا لأربه ومع ان الواقعة مكذوبة أو محرفة على جري عادته فنحن لا ننازعه في ذلك ونطوي الحديث على غرته ولكن تقول اذا مدح أحد مثلا دولة فرنسة وقال انهم ذللوا الفرنسيين وارغموا انوفهم واستلبوهم المناصب وقلدوا الولايات الاجانب وجعلوهم قابضي ازمة الامور يولون ويعزلون ، وينفقون ويمسكون ، فهل هذا يكون مدحاً ترضى به دولة فرنسة أو يكون هذا عارا يستحي منه ؟ ومسبة يستنكف عنها ، وشناعة تشمئز منها القلوب؟ وانصف من نفسك ما كان حظ العباسيين من تولية الاعاجم . اما آل برمك فلا تنكر فضلهم ومحاسن آثارهم ولكنهم مع كل ذلك استأثروا بالاموال وانفردوا بالاعمال حتى لم يكن حظ الخلفاء من الخلافة الا الاسم فقط فاضطر الرشيد الى النكبة بهم وازالة دولتهم . وأما الاتراك فصاروا يلعبون بالخلافة كل ملعب فكم قتلوا من الخلفاء وسجنوا وعذبوا بانواع العذاب وتركوهم يموتون جوعاً يسألون الناس ولا يعطون . فهل هذه سياسة تمدح ومأثرة تذكر وفضيلة يفتخر بها ؟ .

﴿ الخلفاء الراشدون ﴾

المؤلف حرفته تأليف الكتب متكسبا بها وهو يعرف حق المعرفة انه لو اعتقد

على الخلفاء الراشدين ونال منهم تصريحاً كسد سوقه ، وخابت صفقته ، فدبر لذلك حيلا لايكاد يتفطن لها اللبيب المتيقظ فضلا عن البليد المتساهل فعمد الى رءوس المثالب ونسبها اليهم بانواع الاحتيال فتارة بتبديدها في ثنيات الكلام وابعادها عن موضع العناية ، وتارة بإيرادها عرضا موهما عدم الاعتناء بها ، وتارة بذكرها محتالا لها عذراً . واذا كررت النظر في كلامه وتصفحت ما فيه وجمعت ماهو مبدد ونظمت ماهو مفرق تكاد تستيقن ان الخلفاء كانوا من أشد أعداء العلم وانهم ابادوا الكتب والخزانات واضطهدوا أهل الذمة وجعلوهم أذلاء لايؤذن لهم ولا يؤبه بهم

أما كونهم أعداء العلم فبين المؤلف ذلك اجمالا وتفصيلا فقال « كان الاسلام في أول أمره نهضة عربية والمسلمون هم العرب وكان اللفظان مترادفين فاذا قالوا العرب ارادوا المسلمين وبالعكس ولأجل هذه الغاية امر عمر بن الخطاب باخراج غير المسلمين من جزيرة العرب . . . – الى ان قال – وتمكن هذا الاعتقاد في الصحابة لما فازوا في فتوحهم وتغلبوا على دولتي الروم والفرس فنشأ في اعتقادهم انه لاينبغي ان يسود غير العرب ولا يتلى غير القرآن الخ »

« أما في الصدر الاول فقد كان الاعتقاد العام أن الاسلام يهدم ما كان قبله فرسخ في الاذهان انه لا ينبغي أن ينظر في كتاب غير القرآن الخ

« فتوطدت العزائم على الاكتفاء به عن كل كتاب سواه ومحو ما كان قبله من كتب العلم في دولتي الروم والفرس كما حاولوا بعدئذ هدم ايوان كسرى واهرام مصر وغيرها من آثار الدول السابقة » الخ (الجزء الثالث صفحة ٣٩)

« وبناء على ذلك هان عليهم إحراق ما عثروا عليه من كتب اليونان والفرس في الاسكندرية وفارس » الخ (الجزء الثالث صفحة ١٣٠)

﴿ حريق خزانة الاسكندرية ﴾

لم يقتنع المؤلف بذلك فعقد باباً لاثبات أن حريق خزانة الاسكندرية كان بأمر عمر بن الخطاب وأطال وأطنب في ذلك واستدل عليه بستة دلائل (١) نحن نذكرها مع الرد عليها اجمالا

قال : أولا — « قد رأيت فيما تقدم رغبة العرب في صدر الاسلام في محو كل كتاب غير القرآن بالاسناد الى الاحاديث النبوية وتصريح مقدمي الصحابة »

(١) الجزء الثالث من تمدن الاسلام ص ٤٠

الذي ذكر قبل ذلك (انظر صفحة ٣٩) وحول عليه هنا أقوالا منها : « ان الاسلام يهدم ما كان قبله » وكنا نعرف ان المراد به إبطال عوائد الجاهلية وزعوماتها وليس المراد محو الكتب أو إحراق الخزائن ولكن لما كان المؤلف دخيلا فيا غريب الذوق والمعرفة حمل الكلام على غير محله أو انه عارف يتجاهل وبصير يتعامى

ومنها قول النبي عليه السلام « لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد » وأي متعلق في هذا ؟ بل هو مخالف لما يريده المؤلف فان الحديث يأمر بالايمان بما أنزل الى أهل الكتاب ، أما الاغفال عن تصديق أهل الكتاب وتكذيبهم فلأجل كون أهل الكتاب غير موثوق بهم في الرواية ، ومنها ان النبي صلى الله عليه وسلم « رأى في يد عمر ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال ألم آتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى حياً ما وسعه الا اتباعي » وهذا لا مستند فيه للمؤلف فان النبي صلى الله عليه وسلم خاف على عمر عنايته بالتوراة والتصديق بكل ما فيها مع كونها مغيرة لعبت بها أيدي النقلة ولذلك قال ألم آتكم بها بيضاء نقية وهذا لا يستلزم بل ليس فيه أدنى إشارة الى محوها وإلحاق الضرر بها ونزيدك ايضاحاً للكلام بما فيه ثلج الصدر وفصل الخطاب ، فاعلم ان عمود الاسلام وقطب رحاه هو القرآن وعليه المعول وهو المستمسك في كل باب وكان هو العروة الوثقى في ذلك العصر للصحابة وأهل القرن الاول ، والقرآن له عناية كبرى بالتوراة والانجيل وهو الذي نوه بذكرها وعظم شأنهما ، فقال

« فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون »(والمراد بالذكر التوراة) — انا أنزلنا التوراة فيها هدى — ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم — مصدقا لما بين يدي من التوراة — ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه » (أي التوراة والانجيل)

ولاجل ذلك كان عدة من أجلة الصحابة منقطعين الى قراءة التوراة والانجيل والاعتناء بحفظهما ودرسهما ولم يكتفوا بها بل أخذوا يروون ويتفاوضون كل ما وجدوا من أقاصيص أهل الكتاب ومروياتهم وقد اعترف بذلك المؤلف نفسه فقال

« وقد رأيت ان العمدة في التفسير على النقل بالتواتر والاسناد من النبي فالصحابة فالتابعين ، والعرب يومئذ أميون لا كتابة عندهم فكانوا اذا تشوقوا الى معرفة شيء مما تتوق اليه نفوسهم البشرية من أسباب الوجود وبدء الخليقة وأسرارها سألوا عنه

أهل الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى ـ الى أن قال ـ فكانوا اذا سئلوا عن شيء أجابوا بما عندهم من أقاصيص التلمود والتوراة بغير تحقيق فامتلأت كتب التفسير من هذه المنقولات (الجزء الثالث صفحة ٦٤) (يتلى)

بشائر عيسى ومحمد (*

(في المهدين العتيق والجديد)

٢

واذا ترجمنا عبارة داود هكذا (ثقبوا يديّ ورجليّ) كما يترجمونها كان المعنى أنهم أتلفوهما وهو كناية عن تعطيل جميع قواه وقهره واذلاله بسبي نسائه ونساء رجاله وبنيهم وأخذهم الغنائم الكثيرة منهم (١صمو ٣٠ : ٣ و١٩) ألا ترى إلى قوله في نفس هذا المزمور ٢٢ : ١٤ (كالماء انسكبت . انفصلت كل عظامي . صار قلبي كالشمع . قد ذاب في وسط أمعائي) إلخ فهل هذه الاشياء وقعت بالفعل ؟ وهل انفصلت عظام داود أو المسيح حقيقة وذاب قلبهما ؟ أم كل هذا كنايات كقوله (ثقبوا يديّ ورجليّ) ؟ وكان داود يدعو الله أن ينصره على أعدائه ويخذلهم وينجيه من تعيير رجاله له ورغبتهم في رجمه . وقد كان ذلك كله فنصره الله عليهم وقتلهم واسترد منهم جميع ما أخذوه كما سبق (١ صمو ٣٠ : ١٧ ـ ١٩)

وأمثال هذه الكنايات كثيرة في المزامير وغيرها راجع مثلا قوله مز ٣ : ٧ (قم يارب . خلصني يا إلهي . لانك ضربت كل أعدائي على الفك . هشمت أسنان الاشرار) ومزمور ١٨ و٣٥

أما المسيح عليه السلام فلم ينجه الله تعالى على قولهم من يد أعدائه بل أخذوه وعذبوه وصلبوه وقتلوه مع أن مقتضى المزمور الذي نحن بصدده أن الله استجاب

(*) تابع لما نشر في الجزء الرابع ص ٢٨٩